الجزء الثالث من حوار الأديبة والمترجمة والأكاديمية باهرة عبد اللطيف مع الكاتب والباحث د. أسامة غالي (كتاب محاورات، 2023):

<u>س 7: في قصيدة النثر، هل ثمة فارق جوهري بين القصيدتين العربية والإسبانية؟</u>

قصيدة النثر الإسبانية حديثة العهد نسبياً إذ بدأت في مطلع القرن العشرين، والكتب النقدية والدراسات التاريخية حولها ما زالت محدودة، على الرغم من جود كم كبير من المقالات النقدية المخصصة لها. والسبب في الماضي كان يعود لتحفظات بعض النقاد الذين اعتادوا التعامل مع القصيدة التقليدية التي تعتمد الأوزان الشعرية الإسبانية والقافية، وثمة سبب آخر يتعلق بتعدد أصوات قصيدة النثر واختلاف أساليبها وحريتها التعبيرية وصعوبة تقصيها.

في ما يخص صعوبة دراسة وتقصي تاريخ شعراء قصيدة النثر فذلك لأن الأدب الإسباني -على غرار الأدب العراقي الحديث- توزع على أدب الداخل أو ما سمي بـ

"الأدب الفرانكوي" وأحياناً تطلق عليه تسمية "أدب ما بعد الحرب الأهلية"، وأدب الخارج أو المنفى الذي رافق نهاية الحرب الأهلية ومظالم الديكتاتورية التي أدت إلى نزوح أعداد كبيرة من الأدباء والمثقفين والأكاديميين. وكان شعراء الخارج أكثر حرية وانفتاحاً في كتابة قصيدة النثر بعيداً عن إسبانيا وأجواء الاستبداد المسيطرة فيها آنذاك، فظهر شعراء كبار مهمون، كثير منهم كانوا من شعراء جيل الـ 27 الذي سبق ذكره.

أما شعراء قصيدة النثر في الداخل فمنهم بلاس دي أوتيرو من جيل ما بعد الحرب الأهلية، وخيراردو دييغو من جيل الـ 27، ولاحقاً شعراء آخرون بارزون من جيل الخمسينات والستينات كغابرييل ثيلايا وخوسي ييرو وبيثنته اليخاندري الذي نال جائزة نوبل للأدب عام 1977 وسواهم.

كان الشاعر المعروف خوان رامون خيمينث الذي فاز بجائزة نوبل للأدب عام 1956 من أوائل الشعراء الإسبان الذين كتبوا قصيدة النثر في مطلع القرن العشرين ثم تبعه شعراء آخرون. لكن مع ذلك ثمة من تأخر كثيراً في نشر نصوصه، كما هو الحال مع خيراردو دييغو الذي كتبها في الفترة ما بين 1918- 1959 وتأخر صدورها كثيراً حتى عام 1989. والسبب هنا يعود بلا شك إلى اضطراب الأوضاع السياسية بدءا بالحرب الأهلية (1936-1939) مروراً بحقبة الديكتاتورية الفرانكوية التي امتدت منذ نهاية الحرب الأهلية حتى عام وفاة الديكتاتور الجنرال فرانكو في نوفمبر عام 1975. ثم شهدت مرحلة الديمقراطية، منذ إقرار دستور عهد الديمقراطية حتى اليوم، ازدهاراً كبيراً في قصيدة النثر بعد أن شاعت أجواء الحرية والانفتاح على أوروبا والعالم، بانقضاء مرحلة هيمنة العسكر والكنيسة والفكر اليميني المحافظ على جميع مناحي الحياة ومنها الأدب والشعر لما يقرب من أربعة عقود.

بالعودة إلى سؤالك: هل ثمة فارق جوهري بين قصيدتي النثر العربية والإسبانية؟

بدءاً أقول إن الشعر بوصفه نسيج لغوي فكري وجداني، يرتبط دائماً بالتطور الحضاري للمجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر. والشعر الإسباني كسواه من الشعر الإنساني مرّ بمراحل من التجديد والرغبة في الانعتاق من قيود الوزن والقافية هرباً من التكرار والجمود القاتل للروح، وبحثاً عن تجديد لغة الشعر وصورها وإيقاعها وموسيقاها

الداخلية. وهكذا كتب الشعراء الإسبان قصيدة النثر الحديثة منذ مطلع القرن الماضي - بحكم الجوار الجغرافي الفرنسي- بتأثير من الشاعر الفرنسي بودلير الذي كتب أولى قصائده النثرية عام 1869، مع أنه لم يكن أول من كتبها وبشّر بها في فرنسا بل وهو نفسه أخذها عن إدغار آلان بو.

أما قصيدة النثر العربية فقد تأخرت أكثر انتظاراً لقراءات بعض الشعراء العرب بالفرنسية- ووصول ترجمات لقصائد النثر الغربية ونقدها (كتاب الناقدة الفرنسية سوزان برنارد "من بودلير حتى أيامنا" الذي قدمت فيه دراسة موسعة عن قصيدة النثر). ولو أن هناك من نقادنا من يحيل قصيدة النثر العربية إلى النصوص الصوفية إلا أن كتابتها بدأت بلا تردد بتأثير من الشعر الغربي.

وكما بات معروفاً، فقد تأثر شعراء مجلة (شعر) اللبنانية بها، ومنهم أدونيس والخال وأنسي الحاج وجبرا وحاوي وآخرين، ونشروا قصائدهم النثرية وتنظيراتهم في خمسينات وستينات القرن الماضي، وأرسوا مفهوم قصيدة النثر بوصفها شعراً، بالرغم من عدم التزامها ببحور الشعر وخضوعها لضوابط القصيدة التقليدية.

لكل ما تقدم أقول، باستثناء اختلاف المرحلة الزمنية، تبقى الفوارق ضئيلة بين قصيدة النثر الإسبانية والعربية. فمن حيث حجم القصيدة، هناك من كتب قصيدة نثر وصلت إلى اثنتين وثلاثين صفحة، كما هو الحال مع خوان رامون خيمينث، وثمة من كتب قصيدة من نصف صفحة أو صفحتين أو ثلاث، وحديثاً هناك من كثف قصيدته لتقتصر على سطر أو اثنين.

أما من حيث المضمون، فقد اختلف الشعراء في مضامينهم وفقاً لتنوع ذائقاتهم وتجاربهم الحياتية، وتبعاً للقيود المفروضة على شعراء الداخل في مرحلة الديكتاتورية. لذلك نجد من بين الشعراء الإسبان من كتب قصيدة النثر الصافية أو من وظفها لغرض اجتماعي أو سياسي، سواء لتمجيد الديكتاتورية أم لإدانتها.

أما تجارب شعراء المنفى فقد تميزت بغناها وتنوعها بحكم اختلاف البيئات التي عاشوا فيها وكتبوا، وبسبب من اطلاعهم على تجارب الثقافات الغربية والعالمية، بخلاف أقرانهم في الداخل ممن عانوا عزلة داخلية رهيبة فرضها النظام، وبسبب مقاطعة السياق

الأوروبي لنظام فرانكو الديكتاتوري. (للقارئ أن يتنبه إلى مشتركات التجربة الشعرية الإسبانية مع نظيرتها العراقية، مع فارق المرحلة الزمنية).

بقي أن أضيف ملاحظة تخص توظيف قصيدة النثر الإسبانية لغرضٍ شعري لم أتنبه إليه في السياق الشعري العراقي والعربي بوجه عام: أعني انتشار ما دعي بـ "قصيدة الكاريكاتير" للسخرية من شخصيات حقيقية عبر تصويرها كاريكاتيرياً.

على أية حال ما زال معظم الشعراء الإسبان المعاصرين يكتب القصيدة الكلاسيكية والشعر الحر وقصيدة النثر، كما هو الحال مع شعرائنا العرب، فلكل منها ميزاتها التي توفرها للكاتب، ومزاياها التي تستهوي القارئ.